**المحاضرة (06): النظريات الحديثة حول الفن وعلم الجمال (02)**

**3-أرتور شوبنهاور Arthur Schopenhauer**

طرح الفيلسوف الألماني شوبنهاور ( 1860-1788) المعروف بفلسفته التشاؤمية أفكارا وطروحات نظرية بخصوص الظاهرة الجمالية؛ ومن أفكاره الهامة في هذا الصدد، أطروحته القائلة بأن: "الفن والأخلاق هما وسيلتان للتحرر من الإحساس بالألم والشعور بالوجود". فالفن في نظر شوبنهاور هو ممارسة تقود إلى الحرية والتحرر من القيود التي تفرضها الحياة وآلامها على الإنسان. وفي هذا الصدد، سنستعرض بعضا َّ من الأفكار الرئيسة التي علق عليها شوبنهاور، وخاصة في تصنيفه للفنون الجميلة دون الوقوف عند تفاصيلها الدقيقة.

البداية مع ما يراه شوبنهاور بخصوص فن العمارة بقوله: "الصراع بين الجاذبية والسكون هو، بكلام دقيق، المادة الجمالية الوحيدة في العمارة؛ ولذا فمشكلة العمارة إنما هي في تبيان ذلك الصراع بطرق متعددة ومتنوعة... العمارة لا تؤثر فينا بأبعادها الرياضية وحسب، وإنما ببعدها الديناميكي كذلك... وما تقوله في ذلك ليس مجرد الشكل والتناسق وإنما تلك القوى الأساسية في الطبيعة، تلك الأفكار الأولى، تلك الدرجات الدنيا من تجسد الإرادة" لذلك يعد الفن عند شوبنهاور مشروطا بالإرادة والفكر، وليس المطلق كما في فلسفة هيجل المتمثلة في المثالية المطلقة. أما بخصوص التراجيديا فيرى شوبنهاور أنها: "أعلى أنواع الفن الشعري. هي تمثيل للجانب المرعب من الحياة، وللصراع الشامل بين الإرادة وذاتها في أعلى مستويات تجسده" [[1]](#footnote-1)

فالتراجيديا هي نوع المعاناة النابعة من الحياة ومشقاتها، وقد لا تكون كذلك حينما تظهر لنا معنى الشقاوة في حيوات الناس وتكسبنا من خلالها فكرة تعليمية يستفاد ُ منها، أو في أنها تحسسنا بقيمة السعادة أمام ما تجسده من آلام في حياة الآخرين. لذلك، لا يمكننا أن نقر دائما بقساوة الأشياء، فقد تكون بمثابة لحظة نتساءل فيها عن المعنى الحقيقي للحياة، ومن ثم، نتأمل لنسمو بأفكارنا إلى ما يستحق الاهتمام والأفضلية.

وفي فن الموسيقى يرى شوبنهاور على أنه أعلى مراتب الفنون، بل هو أكثر من ذلك، لأنه يتيح لنا الإحساس والشعور بالأشياء المجردة؛ "فالموسيقى في رأي شوبنهاور ليست كالفنون الأخرى في كونها صورة للمثل الأفلاطونية؛ وإنما هي صورة للإرادة نفسها، التي تعد المثل مظهرا ً موضوعيا لها. لهذا كان تأثير الموسيقى أقوى وأعمق بكثير من تأثير الفنون الأخرى، إذ إن هذه الفنون الأخرى لا تتحدث إلا عن مظاهر، على حين أن الموسيقى تتحدث عن الشيء في ذاته".[[2]](#footnote-2)

ولهذا بالذات، حصلت الموسيقى على درجة الأفضلية لدى شوبنهاور؛ ولأنها تخاطب مدركاتنا وأحاسيسنا، نجدها دائما ً حاضرة حتى في الفنون الأخرى؛ فمثلا نجدها في الفيلم السينمائي كما نجدها في العرض المسرحي، ونجدها فقرة مصاحبة للقراءة الشعرية كما نجدها متجسدة –كمحرك ديناميكي- ِّ في فنون الرقص والتعبير الجسدي. فهي الموسيقى التي تعبر عن همومنا وقضايانا الإنسانية، كما أنها تعبر لنا عن الأشياء الملموسة والمادية بما هو غير ملموس.

**4-بينيدتو كروتشه Benedetto Croce**

قدم الفيلسوف الإيطالي كروتشه (1866 -1952) إسهامات معرفية غنية حول الفن والجماليات من خلال كتابين أساسين، الاستطيقا بوصفها علم التعبير أو علم المعاني العام"، ثم الكتاب الثاني موسوما بــ"المجمل في فلسفة الفن"؛ هذين الكتابين يضمان أهم أفكاره وتصوراته النقدية بشأن أسس الفن ومفاهيمه ومكانته في الفكر والمجتمع الإنساني، وأهم القضايا الجمالية ذات الصلة بالفن وقضاياه الفكرية والثقافية والإبداعية، ناهيك عن تقديمه لمجموعة هامة من الطروحات النقدية في قضية التأريخ للفن ولفلسفته.

الفن في نظر كروتشه هو: "عيان Visionأو حدس."intuitionوالحق أن ما يقدمه لنا الفنان إنما هو صورة imageأو شكل وهمي، fantômeومن هنا فإن كل من يتذوق إنما يدير بصره نحو تلك الجهة التي يدله عليها الفنان، لكي ينظر من النافذة التي أعدها له الفنان، محاولاً ً أن يعيد تكوين تلك الصورة في نفسه. ولا يرى كروتشه مانعا من أن يضع جنبا إلى جنب كلمات "العيان" و"الحدس"، و"التأمل"، و"التخيل"، و"التوهم"، و"التمثيل"... باعتبارها جميعا مترادفات تترد باستمرار على ألسنة الناس عند حديثهم عن الفن" .

يحدد كروتشه وظيفة الفن -من خلال ما يقدمه الفنان للمتلقي- في أنه أداة تواصل بين الأفراد، اعتبارا لما يبدعه الفنان للمتلقي، وما يدفع هذا الأخير إلى التذوق الجمالي لإبداعه المنتج، وبالتالي يغدو التواصل هنا قائما بين الفنان والمتلقي من خلال (قناة التواصل) المحددة في الأثر الفني الذي يخلقه الفنان (المرسل) إلى متلق يسمى (المرسل إليه) بالمفهوم المنطقي للتواصل. وفي إطار هذه العملية يحدث التلقي الذي يقع فيه التأويل وإعادة بناء المعنى للأفكار والموضوعات التي يحددها العمل الفني من قبيل المتلقي، والذي بدوره يعيد تشكيل الصورة في نفسه كما أقر بذلك كروتشه.

وفي سياق آخر، يحاول كروتشه جاهدا أن ينزع توصيف الفن بالظاهرة الطبيعية بقوله: "فقد لزم ألا يكون ظاهرة فيزيائية أو واقعة طبيعية. Fait physiqueومعنى هذا أن الفن لا يمكن أن يوضع على قدم المساواة مع الظواهر الطبيعية (كالضوء أو الصوت أو الكهرباء أو الحرارة أو ما إلى ذلك")[[3]](#footnote-3)

والملاحظ هنا أن كروتشه يحاول إبعاد قدر الإمكان صلة الفن عن الظاهرة الطبيعية، كما أنه -في هذا الإطار- لا ينظر إلى الإبداع الفني من منظور التجربة الدقيقة، وأنه واقعة قابلة للقياس كما هو الحال في العلوم؛ لذلك اتجهت معظم طروحاته النقدية صوب معارضة مؤيدي الطرح الذي يدعم هذه الصلة، معتمدا في ذلك نظريته القائلة: "ليس للواقعة الجمالية أي وجود مادي".

قضية أخرى من بين أهم القضايا التي لقيت اهتماما ً نظريا من قبيل كروتشه، وهي إنكاره لمسألة أن يكون الفن مجرد فعل أخلاقي. "ولهذا يقرر كروتشه أنه إذا كانت "الإرادة الخيرة" هي قوام الإنسان الفاضل، فإنها ليست قوام الإنسان الفنان. والسبب في ذلك أن مقولة "الأخلاقي" ً لا تنطبق أصلا على العمل الفني -من حيث هو عمل فني- ما دام المستحيل الحكم على أية صورة -من حيث هي مجرد صورة- ً أنها مقبولة أو مردودة أخلاقيا" [[4]](#footnote-4)

**5-مارتن هايدغر Martin Heidegger**

يعد هايدغر (1889 - 1976) من أبرز الفلاسفة الذين أولوا اهتماماتهم النقدية والفلسفية للظاهرة الفنية من حيث هي ظاهرة، لذلك باشر العمل في دراستها بتطبيقه لمنهج الظواهر، بغية الكشف عن الحقائق المضمرة في العمل الفني. ولعل ذلك راجع بالأساس إلى تأثره بأستاذه إدموند هوسرل(1859 - 1938 ) مؤسس علم الظواهر (الفينومينولوجيا). وللإشارة عمل هايدغر إلى جانب دراسته للظاهرة الفنية، على تكريس معظم طروحاته النقدية واهتماماته الفلسفية لدراسة قضايا هامة في النظريات الفلسفية وهي: "الوجود، والحرية، والحقيقة". ولئن كانت اهتمامات هايدغر تنحو صوب هذا الاتجاه والبداية مع قضية هامة كرس لها هايدغر إسهامات عديدة، وهي مسألة الأصل في العمل الفني. ويستهل هايدغر معرض حديثه عن هاذه القضية في كتابه "أصل العمل الفني" ً ، قائلا: "الأصل يعني هنا من أين وبماذا يكون هذا الشيء وما هو وكيف هو. هذا الذي يكون عليه الشيء وكيف هو، نسميه جوهره. أصل الشيء هو مرجع جوهره. والسؤال عن أصل العمل الفني سؤال عن مرجع جوهره "ويتبدى من خلال هذا التساؤل الأبستمولوجي معطىي سائد ماهية الشيء المبحوث فيه. هذا الشيء هو العمل الفني الذي يحاول هايدغر جاهدا أن ينبش في ماهيته ومنبعه الأصلي وفي إطار البحث عن جوهر العمل الفني، يصل هايدغر إلى حقيقة معرفية مفادها: أن "الفنان هو أصل العمل الفني، وأن أصل العمل الفني أيضا هو الفنان". وبهذا يكشف لنا هايدغر حقيقة العلاقة الجدلية التي تربط بين الفنان والعمل الفني، ويقول في هذا الصدد: " ً الفنان والعمل الفني هما دائما في ذاتهما وفي علاقتهما المتبادلة موجودان عن طريق ثالث، هو الأول، أي ذلك الذي اتخذ منه الفنان والعمل الفني اسميهما، وهو طريق الفن" [[5]](#footnote-5) وعلى هذا يعتبر هايدغر أن كل ما يحصل في العمل الفني هو الحقيقة، وبالتالي فإن هذه الممارسة هي بمثابة تعبير عن الوجود، أي تعبير عن الحقائق الموجودة بمنظور فني؛ فهو ذاك الفن الذي يتحدث بلسان الوجود ويسعى بعد ذلك إلى الكشف عن الماهيات.

وخلال تحليل هايدغر لأهم قضايا أصل العمل الفني، يتساءل عن الطابع الشيئي للعمل الفني قائلا: يغلب على الظن أن السؤال عن ذلك سيكون زائدا ً عن اللزوم ومربكا؛ لأن العمل الفني شيء آخر يتجاوز الشيئي. وهذا الشيء الآخر الذي يكمن فيه، هو الذي يكون العمل الفني. العمل الفني شيء مصنوع، ولكنه يقول: هو شيء آخر غير الشيء المجرد في حد ذاته[[6]](#footnote-6) وقد أراد هايدغر في هذا الصدد أن يكشف اللثام عن الحقيقة المضمرة في العمل الفني، بوصفه بعدا يتجاوز الشئي، لذلك يعتبره (العمل الفني) بمثابة شيء مصنوع يكشف لنا كل ما ينطوي عليه من الأشياء والموضوعات والحقائق والوحدات الفنية.

وخلال بحث هايدغر في صلة الفن بالحقيقة، يطرح فكرة في هذا الإطار قائلا بأن: "كل فن إنما هو في جوهره ضرب من الشعر"، وهايدغر هنا إنما يفهم الشعر" بمعنى واسع؛ لأنه يرتد إلى الأصل الاشتقاقي للكلمة اليونانية، فيفهم "الشعر" بمعنى "الإنشاء" أو "الإبداع" أو "الخلق". وحينما يقرر هايدغر أن سائر الفنون من معمار وتصوير وموسيقى ونحت إنما ترتد إلى الشعر، فإنه لا يعني بذلك أن لفن القول ضربا من الصدارة على فنون التجسيم أو التلوين أو التنغيم، بل هو يعني بذلك أن كل فن من الفنون لا بد من أن ينطوي على عملية إبداعية يحاول فيها الفنان أن يجعل من "الظاهر" ً تعبيرا عن "الباطن"

1. - المرجع السابق، ص 165-170 [↑](#footnote-ref-1)
2. - شاكر عبد الحميد: العملية الإبداعية في فن التصوير، سلسلة عالم المعرفة، عدد: ،109المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،

   الكويت، يناير .، 1987، ص 112-113 [↑](#footnote-ref-2)
3. - زكريا إبراهيم: فلسفة الفن في الفكر المعاصر؛ مكتبة مصر، بغداد-العراق، ص37 [↑](#footnote-ref-3)
4. - المرجع السابق ، ص39 [↑](#footnote-ref-4)
5. - مارتن هايدغر: أصل العمل الفني؛ ترجمة: أبو العيد دودو، منشورات الجمل، كولونيا، الطبعة الأولى، 2003، ص58 [↑](#footnote-ref-5)
6. - المرجع السابق، ص62 [↑](#footnote-ref-6)